

مصر منذ تسعين سنة

للسائح الفرنسي دي زفال

(٤)

الوكيل

كان اليهودي يوسف التاجر الذي ذكرته فيما سبق يأتي لزيارتي أحيانا كثيرة ويظهر لي التودد فيجلس على « ديواني » ويشرب القهوة ويدخن . فيوما ما اتاني قائلاً : علمت انك تغش عن امرأة فاحضرت لك « الوكيل » . فاجبتُ ومن هو الوكيل ؟ قال هو الوساطة بين الرجل الراغب في الزواج وبين اهل البنات وهو شيخ جليل ينعمك في هذه المسألة . وقد رجوت منه نيابة عنك ان يرى بنتاً موافقة لك وصالحة للزواج . فقلت له ولكني لا اريد ان اعقد زواجاً في مصر . قال لست مضطراً لعقد الزواج الا الى اجل محدود . قلت لا اريد ان اتسرى او انت اسكن مع امرأة على غير سنة الزواج ولربما كانت من النساء الفاجرات . قال كلا ليس الآن في القاهرة سوى النساء الاحرار لان سعادة افندينا في كل عواصم مصر الى اسنا والشلال وطهر مصر منهن . قلت انيتني اذا بالوكيل فدخل الوكيل وهو كما قال يوسف شيخ اعمى بقوده ابنة وهياته تدل على الاستقامة والرصانة . وقيل لي ان الوكيل لا يكون في الغالب الا من العميان ليسهل عليه الدخول الى بيوت الاسر ومقابلة اهل البنات الراغبات في الزواج . فاستأجرنا الحميم وركبنا فاصدين للذهاب الى بيت رجل قبلي وعندنا بنات صالحات للزواج . وكان الوكيل قبل حضوره اليّ قد كلمه بشأني فضرب له . ووعداً لارى البنت . والمادة ان اعطى لا يمكنه ان يرى وجه خطيبته ولا يعرف هبتها وشكلها الا انه يرسل نساء من اهلها فيرينها ويصننها له . ولكنني اشتغلت عن الوكيل ان ارت الفتاة اذ ليس لي من اتق بي في هذه المهمة فلم يتردد ابو الفتاة في قبول هذا الشرط العادل ناسحاً . وبينما نحن سائرون قال لي يوسف مترجماً كلام الوكيل انه يمكنني ان اتزوج في مصر على اربع طرق مختلفة . فقلت وما هي ؟ فاجاب ان الطريقة الاولى هي ان تتزوج بنتاً قبطية بقصد اسلامي . وذلك ان يأتي شيخ يقال له المأذون فيكتب لك عقد الزواج بشهادة بعض الشهود واثبات القاضي

ولست مرعفاً بهذا العقد على التجمال الدين الاسلامي . ولكن ليس كل القبطيات يرتضين
بهذا العقد بل يرضى به الأثمة والكاتبات والفقيرات

واما الثانية فهي ان يعقد زواجك قسيس قبطي بشرط ان تدفع المهر وتحدد مبلغاً
موجلاً تدفعه لزواجك اذا شئت فبا بعد ان ترجع الى بلادك وتتركها هنا عند اهلها .
قلت من العدل ان يدفع المهر في هذه الحالة ولكن كم مقداره . قال بحسب منزلتك ومقدرتك
المالية من مئة غرش الى مئتين فقط افلتك في نفسي خمسون فرنكاً انها اصفقة رابحة ا
قال وتدفع ايضا مبلغاً مضاعفاً اذا تركتها . ولكن بهذه الطريقة لا يمكنك ان تتزوج الا
ببنة فقيرة من اسرة وضيعة . واما ان شئت ان تتزوج ببنتاً جميلة من اسرة وجيبة
فيجب ان يعقد زواجك قسيس الاقباط في الكنيسة وان تبع مذهبها . وفي هذه الحالة
يكون زواجك مرتبطاً بحياتك لا يمكنك ان تطلق امرأتك ولا ان تتخذ بها يدلاً
ولا تقدر ان تتركها وترجع الى بلادك او تدفع غرامة باهظة . قلت لا يمكنك ان تتزوج
على هذه الطريقة

واما الطريقة الثالثة فهي ان تتزوج على مذهبك اللاتيني عن يد قسيسي الافرنج وهذا
الزواج كما نعلم يملك مرتبطاً بزواجك طول ايام حياتك ويحملها مضطرة ان تتبعك ابناً
سرت . قلت لا لا . دعني من هذه الطريقة . وماذا ايضا ؟

قال واما الرابعة فالزواج المدني عن يد قنصل حكومتك واذا كان لك صلة معرفة اصدقاء
باحد موظفي القنصلية فيمكن ان يضيف الى عقد زواجك شرطاً يملك حراً مطلقاً اذا
شئت الرجوع الى بلادك

واستمر الحديث بيني وبين الوكيل بواسطة يوسف اليهودي الى ان وصلنا الى متهى
حارة الاقباط تجاه الازمكية عند طريق مدينة بولاق . فدخلنا في بيت ظاهره حدير متني
بالطوب في سوق تباع فيها الخوم والثاكلة (ربما كانت سوق النصارى الآن) وقال لي
الوكيل ان هذا البيت ليس لابي الفتاة بل لاحد اقاربها وسرى فيو ابنتين فاختر واحدة
منها . فقلت له وبكتي انذرك من الآن اني لا ادخل اذا كاتنا قبايلاني وهما محببتان .
فقال كني مطرباً فقد كنت اهل البنات بذلك وقرروا فيا بينهم ان ليس من حرج اذا رأهما
افرنجي سافرتين مرة واحدة . فدخلنا الى دهليز مظلم ثم الى « مندره » مقروشة بحصيرة فوقها
« طراحة » . وعلى الطراحة اربعة رجال « متربون » وكلهم بلباس زرقاء . تخشيت ان

بكون لو كين قد اوقفني في كين ولكن وجود البيت بالقرب من السوق جعلني اطمئن .
ثم سعدنا الى عليّة نوافذها مطلة الى الخارج ومظانة بشعريات ومشربيات بارزة فجلسنا
على مقاعد واظئة ونظرت حوالي فاذا كوة صغيرة مفتوحة في الجدار وعليها حاجز من
خشب مثقوب فقلت ان في الغرفة الاخرى سكن النساء يربنا ولا نراهن . فجلسنا وجلس
بياني يوسف اما انوكيل الاعس وابنة فجلسا القرفصاء امامي وبعد هنيهة دخل شيخ جليل
بلبية بيضاء طويلة وعلى رأسه عمامة سوداء قيل لي انه قسيس قبلي ثم دخل عم الفتاة او
خالها وامرأة اخرى قيل لي انها « الوكيلة » او الخاطبة . وقالت ان الصيبتين تستعدان
للدخول وقدمت لنا خلال ذلك التهبة والشيفات . وبعد برهة طويلة دخلت امرأتان
محببتان قيل لي انهما اما الفتاتين . وليتنا واقفتين عند الباب فدعوتهما للجلوس فأبنا وقال لي
يوسف عن لسانهما انهما خادماتى ولتفان احتراما لي . ثم دخلت صيبتان مكشوفتا الوجه
فتقدمتا وحتتا رأسها امامي وقبلتا يدي فاشرت اليها بالجلوس عن جانبي فأبنا كل الابهاء
وقال لي يوسف عن اسان الحاضرين دعها فانهما جاريتاك

فلم اود كرجل فرنسوي ان ادع الفتاتين واقفتين امامي كجاريتين وليت مدة طويلة
اشدد في الطلب وقال لي يوسف ان العادات الشرقية تمنع النساء والبنات من الجلوس
امام الرجال تأديبا واحتراما وخصوصا في محل مثل هذا فلم اذعن لهذه العادة المغايرة لنودي
وآدابي الغربية . واخيرا بعد مشاحنة طويلة جلستا . وكانتا متزيين بشوب زاهر من القماش
المعروف بالثيت فوقه رداء من « الموصلين المحرم » وعلى رأس كل منها طربوش احمر حوله
قطع نقود « النوازي » وعلى شرائط الحرير وتندلى من اطرافه صفوف من « البندقيات »
« والمحموديات » الذهبية وربما كانت من النحاس المموه بالذهب . وكانت احدهما سمراء اللون
سوداء الشعر والاخرى شقراء بيضاء . فالاولى تمثل العنصر المصري القديم وهي نحيفة
الجسم طويلة القامة كالنخلة بعينين سوداوين يصفها شعراء الشرق « بقامة كعصن البان
وعيون المعى والغزلان » واما الشقراء ففضة الجسم بدنية ذات بشرة ناصعة البياض ادعشتي
وجود مثلها في مثل هذا المكان . فالت عواظني الى هذه الاخيرة وصرت الاطفها واطري
محاسنها ولم اعمل السمراء من التلطف والجمالة تأديبا . وليت مدة ساعة انتقل في الحديث
بين الفتاتين واهلهما الا اني لم اشترال الزواج ولم اصرح برغبتي في من اخترتها عروسا لي
واخيرا قال لي يوسف علام غولت . قلت ساتروى في هذه المسألة وسارجع مرة اخرى
لارى الفتاة الشقراء ايضا وحينئذ اصرح بقصدي . فلم يقتنع القسيس القبطي ولا اهل

الفتاتين بجوابي هذا الفاض وأصروا ان أعلن عزمي فاجبتهم الي سأزورهم مرة اخرى وانهي المسألة . ورايت انهم لم يشقوا بكلامي كل النفقة . ولما ودعتهم وخرجت رأيت في فسحة الدار الفتاة الشقراء تصلح تقابها وقد ظهر عيها وشعرها الذهبي بعد ان سقط طربوشها فتظاهرت بالخجل ونظرت ابي باسمامة فانتة تغلبت على ارادتي وعواظني فالتفت الي يوسف وقلت له قل لم ابي سارسل في الغد بعض الهدايا لهذه العروس الشقراء واني ساتزوجها على الطريقة الاسلامية امام المأذون الشرعي

فأنا نقل كلامي الي ام الفتاة اظهرت الغضب والانفة واجابت لا-ازوج ابنتي الا سيف الكنياسة عن يد القسيس القبطي فنحن من أسرة معروفة ورجالنا كسبة في دوائر الحكام . فقلت ليوسف سلها عن بعلمها . فاجابت ان بعلي كان كاتباً في دائرة الباشا ومات منذ بضع سنين وهي لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها ولم تتزوج سوى مرة واحدة فمهرت بدهشة فهذه الفتاة ارملة اذا ؟ فاجابت كلا بل مطلقة . قلت فقل لم ابي اعدت عن الزواج . فخرجت وانا افكر في هذا الامر الغريب المدهش ومع ذلك لم انكث بوعدني فارسلت في اليوم التالي الي الفتاتين قطعتين من القماش هدية

وكان الوكيل الاعمى يتردد الي في كل يوم ويمرض علي فتيات للزواج وكلهن من الاسر القبطية وكنت اذهب معهُ وأزورهن والحالة واحدة كما شرحتها في الزيارة الاولى من التجميل والاستقبال والحديث ولم اغفل قط عن ارسال الهدايا الي كل فتاة تقدم لي . وشاع امري في حارة الاقباط كلها ف تأتت أسرة من قبول زيارتي حتى ان ارملة فقيرة احضرت ابنتها الي منزلي لاراها وعرضتها لتكون زوجة لي حسب الطريقة التي اختارها ترأيتها لا تصلح لي ومهرتها بعد ان زودتها بهدية

جنينة رشيد

ساء البربري ابراهيم الذي وضعت عندي الترجمان عبد الله عرضاً عنه تردد يوسف اليهودي والوكيل القبطي الي منزلي فاحضر لي يوماً ما شاباً مصرياً اسمه محمود وقال لي انه وكيل الزواج وان له معرفة بأسر وجبهة قبطية ورودية وعرض علي فتيات أكثر وجاهة واعلى منزلة من الفتيات اللواتي عرضت علي اولاً . وذكر لي فتاة من أسرة وجبهة غنية لا يتجاوز عمرها الخمسة عشر ربيعاً ولكن اهلها يشترطون علي ان اتزوج بها عن يد قنصل دراتي وقلت له انها صغيرة السن لا تليق بين يتجاوز الثلاثين سنة من عمره . فاجاب هذه هي السن

اللائقة لنزوح هنا وقد تجد فتاة تجاوزت هذه السن الأ وتكون ارملة او مطلقة واهل هذه الفتاة علموا بمنزلتك ورتبتك ورغبوا في مصاهرتك لانك ساكن وحدك في بيت كان يسكن فيه قبلك سامع انكليزي واجرة السنوية ثلاثمائة غرش وكل الاقباط في هذا الهلي يحبوك جنرالاً او شريفاً بين قومك او حاكماً

قلت واكني لست جنرالاً ولا حاكماً . قال يرون انك لا تعمل عملاً ولست بذي مهنة ولا تاجرأ فلا بد ان تكون من ذوي الاغنياء او الاملاك ويقولون انك « امير لواء » . وقد علمت ان رتبة امير لواء تعادل رتبة جنرال في الجيش وعزمت ان ازور هذه الاميرة لوجهة التي تحبني كنفوسها في الزواج . فركبنا الخمر واخذني الوكيل محمود الى الموسي ثم انعطنا نهالاً الى نواحي جيتنة رشيد (درب الجيتنة) ففرع محمود باب منزل وحضرت جارية سوداء وفتحت لنا ولما رأتنا اظهرت السرور . ثم رقيت السلم وكانت تصفق يديها معلنة تشرريف « الميرلوا » وسمعت فتح ابواب واغلاق ابواب ولفظاً كثيراً . واخيراً وصلنا الى الطبقة العليا فاستقبلنا هناك رجل بزة نظيفة وهيأة تدل على الوجاهة وعلى كنفه « مشلح » من الكثير فرحب بنا وادخلنا الى مقصورة مفروشة بانقر الياش والسمجايد الجميلة وكان هناك غلام يافع طلق الحيا عرفني به وقال انه ابنه . ثم دخلت علينا امرأة جميلة الحياء في الثلاثين من عمرها فتبني بأدب وقدمت لي ولزوجها وللوكيل الشبات والقهوة وعلت من حديث صاحب الدار عن لسان ترجماني ابراهيم ان منشأ هذه الاميرة من الصعيد الاعلى من نواحي سيهاج وطهطا وهم من الاقباط الذين دخلوا حديثاً في المذهب الكاثوليكي . وبعد هتية دخلت فتاة صغيرة بين جاريتين قبيحتي كإمادة ثم اخذت من جاريتها صفيحة كبيرة عليها المرقي في اطباق من البنور يؤخذ بجلاشق صغيرة من الفضة . ثم جلست بالقرب من امها وقد ابت اولاً ان تجلس امامي . فشدت نظري فيها فاذا هي لم تزل صغيرة ولم تكذب تلغ من الخلم ولا تكامل نوح جسمها وبينها وبين امها شبه تام كأنها صورة مصغرة لها . وقالت لي انها تعلمت القراءة في مدرسه الزعميات الفرنسية كليات واخذت عنهن بعض كتابات ايطالية . وحقيقة رأيت في هذه الاميرة ماسرني من الادب والحشمة واعلمني ابو الفتاة بانها لا يقبل ان يزوج ابنته الا في دير الافرنج او عن يد قنصل فرنسا فوعدهم بالجواب النهائي بعد التروي . ثم خرجت من هناك مودعة شاكراً لطفهم

وفي اليوم التالي كان احد « الشعانين » عند الافرنج ووافق في هذه السنة عيد الفصح عند اليهود . وفي هذا اليوم يحمل النصارى سفن الخلل والزيتون في الكنائس في مساء

هذا اليوم قصدت الفرقة في حديقة وراء الموسكى يقال لها جنان رشيد بالقرب من دزب الجينية بقصدها احدى القاهرة عموماً للفرقة بين بساتين نضرة وحدائق غناء تقري المياه في وسطها في سواقي وبحيرات وتروى من النيل في شهور الصيفان . وهناك سواقي تدار بواسطة الشيران تخرج المياه من آبارها في ادلاء مربوطة فيها ويسمع منها في دوراتها نغم شجي كصنجع الحمام . وهذه الفيضان الخصب واقعة بين حي الافرنج وحارة الاياط (وهي البقعة الكائنة الآن بين محل ستين ومحكمة الموسكى وبنك الزهونات قرب البوابة القديمة لحي الافرنج والمعروفة الآن بسرب الجينية ودرب البرابرة) وبين هذه الحدائق بيوت بعض القناصل وبيت الدكتور كلوت بك طيب الباشا الحاكم وغيرهم من الافرنج وهناك بساتين الليمون والبرتقال واشجار النخل والموز والجوز

فقصدت في ذلك اليوم تلك الجنائن والدخول اليها من حديقة البيت الذي يقطنه فصل دولة سردينيا ويجب تقد اليواب والبساتين في بعض درجات حسب العادة . ثم دخلت الى حديقة نضرة سويرة وهي للدكتور كلوت بك جعل قسمًا منها لتربية النعام والوزراف والنزلان واقام بعض التوبيين على حراستها والقسم الاخر يزرع فيه شجر التوت لتربية الحرير . فادى بنا السير الى منعطقات بين الفيضان ودخلنا الى حديقة اخرى لبعض القناصل مزروعة موزاً وهناك بحيرة واسعة وكثك تحت دروالي المنب مدعوم باعمدة من خشب لجلس المتزعمين . وهذه المنزهات فاصرة غالباً على النساء في يوم الجمعة للطلات ويوم السبت للاسرائيليات ويوم الاحد للسبعيات عموماً . فالاوليات يأتين محجبات اما الاخرى فمسافرات الوجوه الا اذا مر امامهن رجل فيسدن القباب على وجوههن وكثيراً ما يأتين الى هناك ومعهن خادماتهن يحملن حصيراً او سجادة يجلسن عليها وسللاً مملوءة من الاطعمة والحلوى

فلا وصلت الى هناك رأيت النساء زمراً زمراً بين الحدائق تحت ظلال الاشجار او على ضفاف السواقي فقصدت مكاناً مفرداً رجست على جلد غزالة سائطة . وفيها انا كذلك اذا بفلاح اقبل نحوى وهو يضحك متودداً فلما تقرست فيه عرفته وهو اخو العروس الصميدة التي رأيتها بالامس فكلمني كلاماً لم افهمه واخيراً فهمت من اشارته انه يدعوني للدخول الى الكشك فاطلني الى هناك وأشار الى ان لا انتقل من موضعي . ثم تركني وذهب وبهد هنيهة رجع تبعة امرأتان محجبتان فدخنا ورفعنا القباب عن وجوهها فاذا هما العروس

وامها فنهضت وحينها بلطف ودعوتها لجوس فجلستا وكانت اشارات الايدي والعيون تقوم مقام الحديث بيننا . واخيراً تذكرت ان الفتاة قالت لي انها تعلمت شيئاً من الايطالية في مدرسة الزاهبات فكلمتها بها فاذا هي لا تفهم النطق الا ببعض جمل بسيطة مشوبة بلهجة عربية . واشرت الى احدى اشجار النخل وقلت لها بالاطالية - في هذا اليوم عيد النخل فخرجت الى الحديقة ورائت بفصن صغير من نخلة وقالت لي « ابوسونو رومانو . ميافتا » . فعلمت ان مرادها انها كاثوليكية تابعة للكنيسة الرومانية وان هذا اليوم عيد عندها لان عيد الشعانين عند الاقباط الارثوذكس لم يكن بعد . وفي نظر نصارى الشرق ان كل الافرنج رومانيون . كأنها تقول لي ثلجاً ان لا مانع ديني من زواجي بها في كنيسة الافرنج

وعند الغروب ودعت الام وابنتها بعد ان وعدتهما بزيارة اخرى وخرجت من جنائن رشيد تاصداً مشاورة فنصلي واصدقائي في امر زواجي . وفي اليوم التالي ذهبت الى صديقي سليمان آغا وكتبته بهذا الشأن فقال لي « تزوج حسب شريعتك » ولما شاورت صديقي المصور مارطات قال لي « تزوج كيفما شئت بشرط ان لا يكون العقد مدنياً في القنصلات » فرأيت الصواب في كلامه . ترى هل جئت حتى اتزوج عن بد القنصل او في دير الافرنج زواجاً ابدياً بفتاة صغيرة جاهلة في الخامسة عشرة من عمرها ؟ وهل استطيع ان التحمل عبء هذه المسأولة مادياً وادبياً كل ايام حياتي ؟

فزممت ان أقطع كل صلة مع هذه الاسرة وارسلت هدية لاثثة الى الفتاة وصرخت لاهلها بواسطة الوكيل اني لا اتزوج بفتاة تحسب كابنتي . وبعد يومين حضر ترجماني عبد الله من السويس ورأيتُهُ قائماً عليّ اذ قال لي هذا ما كنت اخشاه فقد اشتغوا فرصة تنجيني عنك وخذعوك وارادوا ان يزوجوك بفتاة صغيرة عن بد القنصل . نقلت له ولكنني صرفتهم بالحق وتعذلت عن الزواج . قال نعم ما فعلت . وقد قال لي محمود انهم طلبوا منك مهراً . قلت كم كانوا يومئذ مني قال عشرين الف غرش لانهم يحسبونك غنياً شريعياً . فعذلت عن الزواج لما نبي من المصاعب واتبعت مشورة عبد الله وهي ان اشترى جارية من سوق الجوارى لتقوم بخدمة منزلي مدة اقامتي في مصر

ديمتري تفولا





وفد انور الى السيد السنوسي

- (١) الدكتور عبد الغني بك (٢) احمد صوان (٣) الدكتور حافظ عفيفي
(٤) القائم مقام نوري بك (شقيق انور بك) (٥) فهد علي (٦) نيازي بك



عمل نزول وفد انور في جنوب

متنطب ابريل ١٩١٦
امام الصفحة ٣٦٣